امتداد المصطلحات الدلالية القديمة ضمن البحث الدلالي الحديث

د/ لخذاري سعد
جامعة البويرة

لقد كان للدارسين العرب القدامى مجهودهم المحمود والضخم في اللغة والأدب ؛ تترجمه مصنفاتهم وأعمالهم ، ومن ضمن هذا المجهود علم الدلالة الذي كان موزعا عبر علوم عدة من بلاغة ومنطق وأصول ونحو وصرف... وما زاد النظرة الدلالية العميقة دقة هو المنطق والفلسفة بما تمده من رؤى خصبة. ونحن في هذه الورقة العلمية أردنا أن نقترب من بعض علمائنا القدامى وطروحاتهم الدلالية معرفة ومصطلحا لنرى مدى تمثلاتها في الدرس الدلالي الحديث ، وكذلك ، معرفة حول إذا ما كان هناك امتداد للطرح المصطلحي القديم ضمن البحث الدلالي الحديث.

I) تحديد المفاهيم: سنقوم بتقريب المصطلحات التي تتركب منها عنوان هذه الورقة ، وقد حددناها في: مصطلح ، دلّ ، علم الدلالة:

أ) مفهوم مصطلح: نقل "بشير إبرير" تعريفا للمصطلح عن "أحمد أبو حسن" في كتابه: (مدخل إلى علم المصطلح) مفاده أنّه: "عبارة عن كلمة أو مجموعة من الكلمات تتجاوز دلالتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصوّرات فكرية وتسميتها في إطار معين ، تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة ، والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر الموحّدة للمفهوم والتمكّن من انتظامها في قالب لفظي..."[(1)] ؛ فالمصطلح هو تركيب لغوي يستخدمه الباحث ليحمل حمولة دلالية معينة ومفهوما إجرائيا ، وهو يأتي نتيجة التجربة والممارسة ، ويحكم المصطلح نسق منظم من الأفكار ، وهو وسيلة لتنظيم المعرفة.

ب) مفهوم لفظة دلّ: جاء عن "ابن منظور": "والدّليل: ما يستدلّ به. والدّليل: الدّال. وقد دلّه على الطريق يدلّهُ دَلالة ودِلالة ودُلولة"[(2)] ؛ فحسب ابن منظور فإنّ دلّ آتية من الدّليل أي ما تُعرف به الأشياء وما يعرف به المجهول ، ونتوصل عن طريقه لفهم ومعنى وإدراك.

ج) علم الدلالة: حسب "أحمد مختار عمر" فإن "علم الدلالة" (Sémantique):" يعرّفه بعضهم بأنّه دراسة المعنى أو العلم الذي يدرس المعنى أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى ، أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى"[(3)] ؛ فعلم الدلالة يهتم بالجانب المعنوي في اللغة المنجزة والتي يعتبر الإنجاز موجودا لهذه الغاية ؛ أي الحمولة المعنوية وحسب أحمد مختار فإنّه:

"يستلزم التعريف الأخير أن يكون موضوع علم الدلالة أي شيء أو كل شيء يقوم بدور العلامة أو الرمز. هذه العلامات أو الرموز قد تكون علامات على الطريق وقد تكون إشارة باليد أو إيماء بالرأس ، كما قد تكون كلمات وجملاً"[4] ؛ نفهم من هذا ؛ أن علم الدلالة يمكن أن يتداخل موضوعه مع السيميائيات التي تدرس نظام اشتغال العلامات اللغوية وغير اللغوية في إنتاج المعنى ، فأينما كان هناك معنى ، كان لعلم الدلالة رأيه ونظرته في الموضوع محل الدراسة.

II) المصطلحات الدلالية القديمة وتمثلاتها في علم الدلالة الحديث: لقد ترك علماؤنا العرب القدامى ميراثا لغويا وأدبيا ضخما وثريا بفضل الفكر الموسوعي الذي اتسموا به ، ومن ضمن هذا الميراث علم الدلالة معرفةً ومصطلحًا ، حيث:" كان المفكّرون العرب قد خصّصوا للبحوث اللغوية حيّزا واسعًا في إنتاجهم الموسوعي الذي يضم إلى جانب العلوم النظرية كالمنطق والفلسفة علوما لغوية قد مسّت كل جوانب الفكر عندهم ، سواء تعلق الأمر بالعلوم الشرعية كالفقه والحديث ، أو علوم العربية ، كالنحو والصرف والبلاغة..."[5] ؛ فالفكر الدلالي كان منتشرا عبر علوم عدّةٍ ، لأنّه مدخل لفهم الكثير من الظواهر اللغوية التي تحتاجها العلوم للاشتغال والتفسير ، ويمكن أن نجد مباحث دلالية في البلاغة أو المنطق أو النحو أو الفقه وغير ذلك من حقول المعارف القديمة. وحسب "أحمد مختار عمر" فإن الدارسين العرب القدامى قد تناولوا العديد من المصطلحات الدلالية التي تجد امتدادا لها في الدرس الدلالي الحديث ، فيقول:" عقد الأصوليون أبوابا للدلالات في كتبهم تناولت موضوعات ، مثل: دلالة اللفظ-دلالة المنطوق-دلالة المفهوم-تقسيم اللفظ بحسب الظهور والخفاء-الترادف-الاشتراك-العموم والخصوص-التخصيص والتقييد"[6] ، كما نجد:" اهتمامات البلاغيين التي تمثلت في دراسة الحقيقة والمجاز ، وفي دراسة كثير من الأساليب كالأمر والنهي الاستفهام.. وفي نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني...وغيرها"[7] مرتبطة بعلم الدّلالة ؛ فالعرب القدامى فصّلوا في الكثير من المواضيع الدلالية وجعلوا لها مباحث وفصولاً في كتبهم وبنوا أعمالهم على العديد من المصطلحات الدلالية التي نجد تمثّلاتها في الدرس الدلالي الحديث ، بحيث أن إمكانية الإخصاب والإثراء تبقى موجودة إذا ما أُعيد تنظيم وترتيب ما تمّ تناوله قديما نظرًا لوجود البحث الدلالي القديم عبر علوم عدة من منطق ، وبلاغة ، وأصول...

سنقوم بتقصي بعض المصطلحات الدلالية القديمة عند بعض علمائنا العرب القدامى وفق تاريخ وفياتهم ومدى تمثلاتها في علم الدلالة الحديث:

أ) أبو نصر الفارابي (ت339هـ): لقد كان للفارابي أعماله الرائدة في مجال "علم الدلالة" حيث كان فيلسوفا ومنطقيا ، ننقل له من كتابه "إحصاء العلوم" قوله حول "علم اللسان" وأقسامه ، يقول: "وعلم اللسان عند كل أمة ينقسم سبعة أجزاء عظمى: علم الألفاظ المفردة وعلم الألفاظ المركبة ، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة ، وقوانين الألفاظ عندما

تركب ، وقوانين تصحيح الكتابة ، وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين تصحيح الأشعار"[8] ؛ حيث جعل الفارابي مجموعة من المصطلحات الدلالية ، لتنظم الدراسة والبحث الدلالي لأننا سندرس اللفظة وبنيتها اللسانية بمعزل عن السياق والعوامل الخارجية ، يقول "عبد الجليل منقور": "ودراسة الفارابي للألفاظ لا يمكن تصورها بمعزل عن الدلالة ، فلا وجود لألفاظ فارغة الدلالة في علمي المنطق والفلسفة ، إنما الألفاظ ودلالاتها وجهان لعملة واحدة مما سيسمح ذلك في القرون المتأخرة إلى إبراز جملة من العلاقات الدلالية الناتجة عن اتحاد الدال بمدلوله ، وهو ما ظهر جليا في العصر الحديث في مباحث د.سوسير الذي وضع مصطلح الدليل اللساني (Le signe Linguistique) على اتحاد اللفظ بالمعنى ، قطبي الفعل الدلالي"[9] ؛ فالفارابي قد تصور في وقت مبكر عناصر الدلالة في الألفاظ وكيفية تنظيم دراستها دراسة علمية وجعل لها أقساما مختلفة ، مثلما كان كذلك مع سوسير العالم اللساني الذي له الفضل في إرساء الكثير من القوانين المتعلقة بالدلالة ودراسة بنية الألفاظ وعناصرها. لقد توصّل الفارابي إلى مفهوم لـ "المدلول" الذي أعطاه مفهوم "المعقولات" ، وقد جعل يتكلّم فيه ضمن المنطق ، حيث يقول في ذلك:" وأما موضوعات المنطق ، وهي التي فيها تعطى القوانين ، فهي المعقولات من حيث تدل عليها الألفاظ ، والألفاظ من حيث هي دالة على المعقولات. وذلك أن الرأي إنما نصححه عند أنفسنا بأن نتفكر ونروي ونقيم في أنفسنا أمورًا ومعقولات شأنها أن تصحح ذلك الرأي"[10] ؛ نفهم من خلال هذا القول للفارابي بأنّه قدّم تصورا للمدلول المقابل للدال عند سوسير ، وهو أن الألفاظ تتبعها معقولات تنعكس على النفس ، وتولّد فكرًا يعقله كل سامع ، يقول عبد الجليل منقور:" فالنظرية الدلالية عند الفارابي ، لا تخرج عن إطار علاقة الألفاظ بالمعاني ضمن القرائن المنطقية ، ويمكن أن نجمل تعريف الفرابي لعلم الدلالة بأنه الدراسة التي تنتظم وتتناول الألفاظ ومدلولاتها ، وتتبع سنن الخطاب والتعبير لتقنينه وتقعيده"[11] ؛ فالفارابي قد جاء بمجموعة من المصطلحات الدلالية التي وجدت طريقها و مكانها ضمن البحث الدلالي الحديث ، ما يدعونا إلى أن نعتبره بأنه قد أفاد من المنطق في توضيح الكثير من القضايا الدلالية الهامة.

ب) أبو هلال العسكري (ت 395هـ): تناول العسكري مجموعة من المصطلحات الدلالية بالشرح والتفصيل ، ونأخذ من شروحاته: "الفرق بين الدلالة والعلامة" ، يقول:" أن الدلالة على الشيء ما يمكن كل ناظر فيها أن يستدل بها عليه ، كالعالم لما كان دلالة على الخالق كان دالا عليه لكل مستدل به ، وعلامة الشيء ما يعرف به المعلّم له ومن شاركه في معرفته دون كلّ واحد ، كالحجر تجعله علامة لدفين تدفنه ، فيكون دلالة لك دون غيرك ، ولا يمكن غيرك أن يستدلّ به عليه إلاّ إذا وافقته على ذلك ، كالتصفيق تجعله علامة لمجيء زيد ، فلا يكون ذلك دلالة إلاّ لمن يوافقك عليه ، ثم يجوز أن تزيل علامة الشيء بينك وبين صاحبك فتخرج من أن تكون علامة له ، ولا يجوز أن تخرج الدلالة على الشيء من أن تكون دلالة

عليه ، فالعلامة تكون بالوضع والدلالة بالاقتضاء"[12] ؛ ففي كتاب "الفروق اللغوية" الكثير من المصطلحات الدلالية الهامة التي وضعها العسكري ، فحسبه العلامة تولّد دلالة عن طريق المشاركة والمواضعة بين الأشخاص ، ولا يمكن أن تتّسع الدلالة إلاّ إذا علم آخرون بقصدك من العلامة التي وضعتها ، كالتصفيق ووضع حجر كعلامة ، فكلّها علامات تتم بالتواضع مثلما كذلك نتواضع بالألفاظ فنطلقها على الأشياء لتكتسب دلالة.

تناول "العسكري" "القصد" في الدلالة ؛ الذي هو من المفاهيم الهامة في علم الدلالة الحديث ، حيث قال في الفرق بين "الدلالة والدّليل": " أن الدلالة تكون على أربعة أوجه: أحدها ما يمكن أن يستدل به ، قصد فاعله ذلك أو لم يقصد ، والشاهد أن أفعال البهائم تدل على حدثها ، وليس لها قصد إلى ذلك ، والأفعال المحكمة دلالة على علم فاعلها ، وإن لم يقصد فاعلها أن تكون دلالة على ذلك ، ومن جعل قصد فاعل الدلالة شرطًا فيها احتجّ بأن اللص يستدل بأثره عليه ، ولا يكون أثره دلالة ، لأنّه لم يقصد ذلك ، فلو وُصف بأنه دلالة لوُصف هو بأنه دال على نفسه ، وليس هذا بشيء لأنه ليس بمنكر في اللغة أن يسمى أثره دلالة عليه ، ولا أن يوصف هو بأنّه دال على نفسه بل ذلك جائز في اللغة معروف..."[13] ؛ فقد تكون الدلالة عن قصد أو من غير قصد ، كأفعال الحيوانات مثلا التي تصدر أصواتا مثلا وبالنسبة للإنسان يجري أفعالا وأقوالا يقصد بها دلالة حتى وإن كان على غير علم بذلك ويمكن أن تكون حسب العسكري دلالة من غير قصد كالآثار والأدلة التي يتركها اللص التي تكشف جرمه ، وحسبه فإن ذلك جائز وجار في اللغة ولا خطأ مفاهيمي في ذلك.

ج) حازم القرطاجني (ت684هـ): كان لحازم أفكاره المميزة حول التفكير الدلالي ، حيث يقول في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء": "إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان ، فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه ، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبّر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم ، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ"[14] ، ثم قال: " فإذا أحتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ من لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيآت الألفاظ ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني فيكون لها أيضًا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها"[15] ؛ نفهم من كلام القرطاجني أنّه قدّم تحليلا لكيفية اشتغال المعنى عبر الألفاظ ، فهو ينبه إلى دور العالم الخارجي أي **المرجع** في الدلالة ويسميه **خارج الذهن**. فاللفظ وسيط بين العالم الخارجي والذهن ، وهو مترجم للأشياء الخارجية ، أما عنصر الإدراك ؛ فهو تلك العمليات الذهنية التي يقوم بها الإنسان حتى يطابق الألفاظ بصورها الحقيقية في العالم المحيط بنا ، أما الخط فهو ترجمان اللفظ ، إذ يستدعيه ؛ حتى تحصل الدلالة والفهم

فاشتغال الخط من اشتغال اللفظ السابق له. وهذا ملمح لاشتغال المصطلحات الدلالية عند القرطاجني مع الطرح الدلالي الحديث.

د) الشريف الجرجاني (ت816هـ): يعرف الجرجاني "الدلالة" بقوله: "...هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به ، العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول ، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص ، ووجه ضبطه أن للحكم المستفاد من النظم إمّا أن يكون ثابتا بنفس النظم أولا ، والأول إن كان النظم مسوقا له فهو العبارة وإلاّ فالإشارة ، والثاني أن كان الحكم مفهوما من اللفظ لغة فهو الدلالة أو شرعا فهو الاقتضاء ، فدلالة النص عبارة عمّا ثبت بمعنى النص لغة لا اجتهادا..."[16] ؛ فالشريف يقدم تعريفا متقدّما للدلالة بحيث أن ما يقع على نظر أو سمع المتلقي يُدخله في نشاط ذهني وعقلي عميق ، حيث أن المدلولات تستدعي بعضها بعضا حتى يحصل الفهم والتفسير ، وقد ذكر الشريف (عبارة النص ، إشارة النص ، اقتضاء النص) ؛ حيث أن: "هذه التصنيفات الثلاثة التي حددها الجرجاني في تعريفه تبلورت في علم الدلالة الحديث على يد علماء أمريكيين وأوربيين اهتموا بما سمي بالدلالات الإيحائية ، حيث يميز العالم الأمريكي هياكوا (S.J.Hayakwa) بين نوعين من المعاني: المعنى القصدي (Sens Intentionnel) والمعنى الاتساعي (Sens extensionnel) أو كما سمي في الألسنية الحديثة المعنى الإيمائي ، وتحت هذين الصنفين يمكن أن ندرج دلالات الجرجاني الثلاث (دلالة العبارة-دلالة الإشارة-دلالة الاقتضاء)"[17] ؛ فالجرجاني كان يشير إلى نوعين من الدلالات: المباشرة ، وغير المباشرة التي يتم استنباطها واستجلاؤها بأنشطة ذهنية ، حيث تستدعي الدوال بعضها البعض ، وهذا ما تمّ تمحيصه وذكره في الدرس اللساني الحديث على يد علماء غربيين ، ما يؤكّد أن الفكر الدلالي العربي ومصطلحاته لها امتدادها في البحث الدلالي الحديث.

بعدما رأينا كيف أن المصطلحات والرؤى الدلالية القديمة تتفق وتتصل بعلم الدلالة الحديث لا يسعنا إلاّ أن نخرج ببعض النتائج ، من أهمها:

- توجد مجموعة من المصطلحات الدلالية القديمة تتفق وتتماشى مع علم الدلالة الحديث. - وهناك طرح دلالي قديم موزع عبر علوم عربية عديدة يحتاج إلى التنظيم والجمع لغرض الإفادة والإمداد المعرفي.

- يمكن أن نؤسس لعلم دلالة عربي حديث بناءً على المناهج الغربية الحديثة ومعطيات الدرس الدلالي القديم معرفة ومصطلحا.

*** الهوامش:**

1- بشير إبرير ، "علم المصطلح وممارسة البحث في اللغة والأدب" ، مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري العدد: 02 ، جامعة بسكرة ، 2005م ، ص: 02.

2- ابن منظور ، لسان العرب ، ج:11 ، دار صادر ، بيروت ، ص: 248 ، 249.
3- أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، عالم الكتب ، ط5 ، القاهرة ، 1998م ، ص: 11.
4- المرجع نفسه ، ص: 11.
5- منقور عبد الجليل ، علم الدلالة ، أصوله ومباحثه في التراث العربي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001م ص: 19.
6- أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص: 21.
7- المرجع نفسه ، ص: 21.
8- أبو نصر الفارابي ، إحصاء العلوم ، تق وشر: علي بوملحم ، دار مكتبة الهلال ، ط1 ، بيروت ، 1996م ، ص: 19.
9- منقور عبد الجليل ، علم الدلالة ، ص: 32.
10- أبو نصر الفارابي ، إحصاء العلوم ، ص: 33.
11- منقور عبد الجليل ، علم الدلالة ، ص: 34.
12- أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، تح وتع: محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة ، القاهرة ، 1997م ، ص: 70 ، 71.
13- المصدر نفسه ، ص: 68.
14- حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح: محمد حبيب ابن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس 1966م ، ص: 18 ، 19.
15- المصدر نفسه ، ص: 19.
16- الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1985م ، ص: 109.
17- منقور عبد الجليل ، علم الدلالة ، ص: 42.